من الوزراء الإسلاميين :

أبو أيوب الموريانى

للأستاذ محمد أحمد برانق

ليس الارتقاء إلى المناصب من الأمور الهينة بحيث يستطيع أن يرقى إليها من يريد ، لو كان الأمر كذلك لرأيت الناس كلهم سادة ، ولما كان فيهم مسود ، ولكانوا جميعا شرفاء ، وما كان فيهم مشروف ، ولكن الارتقاء إلى مثل تلك المناصب يتطلب نبوغا خاصا يشبه أن يكون شذوذا أو يشبه أن يكون خروجا على مألوف الطبيعة ، وليس ذلك فيهم جميعا وإنما هو فى الكثير الأغلب فقد يرقى إلى منصب رفيع ولاسيما فى زماننا هذا من لم تؤهله مواهبه العلمية أو الأدبية أو الفنية ، وقد يرقى إليه من يكون ذا مؤهلات من جاه أوحسب أو صداقة خاصة ، أو من يصطنع نوعا خاصا من الأخلاق يجعل أولياء الأمر يدفعونه إلى المركز الرفيع طائعين أو مكرهين . ولكنهم حين يخلون إلى أنفسهم يكونون غير راضين فلا ضميرهم يرتاح إلى ماصنعوا ، ولا الوطن منتفع بهم ، ولا الله راض عنهم ، وهؤلاء فى الغالب لا يظل مادفعهم إلى المرتبة العلية من جاه أوحسب أوصداقة أو غير ذلك يحجب عن الانظار سوءاتهم ، فإنهم لايلبثون أن تظهر عوراتهم ويفتضح أمرهم ويبوءوا بالفشل الذى يعقبه الخزى والعار .

وليس كل الذين منحهم الله ذلك النبوغ الخاص يوضعون فى الموضع الذى يجب أن يكونوا فيه ، فقد لا يستغلون نبوغهم بالعمل ويركنون إلى الكسل . وقد ينبغون فى الناحية التى وقفوا أنفسهم عليها ، ولكن الله لم يهيء لهم من

يأخذ بيدهم، أو يفسح السبيل أمامهم، أو يلفت نظر أولى الأمر إليهم، أو أى شىء غير ذلك من الأمور التى نلمسها نحن الآن فى حياتنا. ومثل هؤلاء إن أخطأهم شىء فلن يخطئهم أنهم ينفعون حيث يكونون — وأنهم إن وهب الله لهم خلقا حسنا ومتعهم بالرضا بقضائه وقدره — نعم بالهم واطمأنوا وقنعوا، والقناعة إحدى السعادتين.

***

ونحن إذا صفحنا كتب التاريخ رأينا كثيرا من الذين ولوا أمور الناس وبسطوا سلطانهم كانوا يتمتعون بشخصيات قوية ثبتت على مجادلات المنافقين وبقيت حتى أثرت فى التوجيه السياسى فى زمنهم. ولعل من هؤلاء فتى حدثا نشأ فى قرية من قرى الأهواز، اسمها المورِيان [1] فنسب إليها وعرف بالمورياني واسمه سليمان بن مخلد، وكنيته أبو أيوب.

تعلم أبو أيوب العلوم كلها — تعلم الطب والنجوم والحساب والكيمياء حتى السحر، وكان له فى كل علم نظر إلا الفقه. وكان إلى تمكنه من العلوم المختلفة خفيفا على القلب ظريفا، وكان ظرفه وجماله على مايظهر وراثيا غير مكتسب؛ لأن هذا كان ظاهراً فيه وفى أخويه: مخلد، ومسعود، وكان ذلك سببا فى أنهم جميعا نالوا من الدنيا ونعيمها حظا جسيما.

وكانت لأبى أيوب صلة خاصة بالمنصور، خف على قلبه وقربه إليه، وأجلسه فى حضرة الخلافة، وكان المنصور قلد عبد الملك بن حميد كتابته ودواوينه، وكان لعبد الملك هذا عند الخليفة منزلة خاصة، جعلت عبد الملك يسوق عليه دلاله، فيتثاقل عنه ويتفلل عليه، ولكن لكل شىء غاية، ولاسيما هذه الناحية التى قد تفتح لأعداء عبد الملك ثغرة ينفذون منها إلى قلب المنصور

(١) المورِيان: بضم الميم وسكون الواو وكسر الراء وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف نون (وفيات الأعيان).

وبخاصة أن حساد ذوى الحظوة عند الملوك كثيرون فى كل زمان ومكان .

تمادى عبدالملك فى التثاقل عن المنصور والتفلل عليه، حتى استثقل المنصور ذلك منه ، وكرهه مع استصلاحه له وسكونه إليه ، وأمره أن يتخذ له نائبا ينوب عنه إذا غاب عن مجلس الخليفة ، فاتخذ عبد الملك أبا أيوب وكيلا له يحضر عنه إذا غاب — وما كان أكثر أن يغيب — ولعل المنصور هو الذى أشار بنيابة أبى أيوب عن عبد الملك ؛ لما له فى قلبه من المنزلة ، وهو خفيف على القلب ظريف ، متأت لما يريده منه المنصور ، موفق فى عمله .

شاء الله بعد ذلك أن يهيء الظرف الذى يصعد فيه نجم أبى أيوب، ويتمكن مكانه عند الخلافة ؛ فاعتل عبد الملك من نقرس كان به ، فلزم داره ، فقام بالعمل وكيله ونائبه أبو أيوب ، وكان ناجحا فى أدائه ، فعلا نجمه — وذاع صيته ، وزاد محله — عند المنصور — حتى قلده وزارته ، وفوض إليه أمره كله ، وترك له تدبير الشئون .

***

قدمنا أن أبا أيوب من قرية من قرى الأهواز ، اسمها الموريان ، وأنه نسب إليها ، وأنه كان له أخوان ، وكان له أقارب أدنون وأبعدون ، فما كاد يتولى الوزارة والدواوين للمنصور، حتى جاء بأهله وصرفهم فى الأعمال فعزل من عزل من غير أهله ، ثم ولى من ولى من أهله وتمكن داء المحسوبية من نفسه ، حتى كان جميع أهله يتولون أعمالا يصرفونها ، ونال أكثرهم من الدنيا ونعيمها حظا جسيما . فعل ذلك كله على علم من المنصور، ولكنه كان يغفل عنه أو يتغافل ، مع أنه « كان من الحزم ، وصواب الرأى ، وحسن السياسة على ماتجاوز كل وصف » ولذلك عجب الناس أشد العجب حتى اعتقدوا أنه لابد أن يكون فى الأمر سر ، وبحثوا عن ذلك فلم يهتدوا إليه فقالوا : كما تقول العامة : إن أبا أيوب سحر المنصور ، واتخذ دهنا يمسحه على وجهه ، ويطليه

على حاجبيه إذا أراد الدخول عليه ؛ فسار فى العامة « دهن أبى أيوب » ، وضرب به المثل [1] » .

ولعل للمنصور فى ذلك عذراً فإن أبا أيوب فوق ماقدمنا من أنه كان ظريفا خفيفا على القلب متأتيا لما يريده المنصور — كانت له بالمنصور حرمة ، وربطه به قبل الخلافة سبب اعتقد المنصور أنه دين فى عنقه لأبى أيوب، ولا بد من الوفاء به ، وقد يكون من الوفاء أن يوليه وزارته ودواوينه ، وأن يطلق يده فى تدبير شئون الملك ، وأن يدعه ينتفع هو وينفع من حوله من أهله وخاصته إلا أن هذا السبب ما كان يجعل المنصور يطلق يد أبى أيوب بحيث يعتقد أنه ليس عليه رقيب ، فيطغى ويبغى ويظلم ثم يؤخذ بطغيانه وبغيه وظلمه كما سيأتى ؛ وإنك لتعجب إذا عرفت السبب الذى تظن أنه هو الذى حدا إلى ترك أبى أيوب ، وإطلاق يده . إنه لم يكن أكثر من أنه أنقذه من أمير حكم عليه أن يضرب ، فحمى ظهره من الضرب بالسياط ، وقد يكون السبب معقولا إلى حد ما إذا كان حمى صدره من الطعن بالرماح . أو حمى عنقه من الحز بالسيوف . فيكون فى رعاية ذلك الجميل له بعض العذر ؛ أما الضرب بالسوط فسببه أن عبد الله بن معاوية كان غلب على أصبهان وبعض فارس وبعض الأهواز أيام مروان ، فوفد إليه الهاشميون أجمعون من بنى على وبنى العباس وغيرهم ، واستعان بهم عبد الله فى أعماله ، وكان من الوافدين إليه أبو جعفر المنصور ، فقلده بعض الأعمال ، فأخذ المال وحمله إلى البصرة وسار إليها ، وكان عامل مروان على البصرة قد وضع الأرصاد على كل من يمر من عمال ابن معاوية فقبض على المنصور وحمل إلى عامل مروان ، فقال له : « هات المال الذى اختنته ، فقال : لا مال عندى ، فدعا له بالسياط ، فقال أبو أيوب : — وكان كاتبا لعامل مروان — أيها الأمير : توقف عن ضربه ، فإن الخلافة

(١) مروج الذهب ح ٣ ص ٢١٢ ، والوزراء والكتاب ص ٦٥ ، وابن خلكان ح ١ ص ٢١٦

إن بقيت فى بنى أمية، فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف، وإن صار الملك إلى بنى هاشم، لم تكن لك بلاد الاسلام بلادا؛ فلم يقبل منه، وضرب أبا جعفر اثنين وأربعين سوطا؛ فلما اتصل ضربه إياه، قام إليه أبو أيوب، فألقى نفسه عليه، ولم يزل يسأله حتى أمسك عن ضربه، وأمر بحبسه [١] ». إلا أن المضريين تحركوا لضرب أبى جعفر، وثاروا، وتجمعوا وساروا إلى السجن، وكسروه، وأطلقوه، فذهب إلى البصرة، وكان يتذكر صنيع أبى أيوب، ويشكره له حتى ظهر أمره، وقربه إليه، ثم ولاه الوزارة، واختص به.

وبلغ من خصيصائه به أن أم سليمان الطلحية اتخذت لأبى جعفر مجلسا فى المصيف، جعلت فيـــه الرياحين وجلبت سائر الطيب والثلج، فلما صار المنصور إلى ذلك المجلس أعجبه برده ولذه حسنه، إلا أن ذلك الإعجاب وتلك اللذة لم يبلغا من نفسه المبلغ الذى يرجوه لها؛لأن أبا أيوب غائب عن مجلسه، ولذلك يقول لصاحبة المجلس: إنه لاينتفع بما هو فيه من برد وحسن،فتعجب المرأة وتسأله عن السبب، فيجيب: أنه ليس معه أبو أيوب، فيحدثه ويؤنسه، ولكن المرأة تصرح أنها ماهيأت المجلس إلا لسرور الخليفة، فإذا كان سروره لايتم إلا بحضور أبى أيوب، فليس عليه بأس أن يبعث إليه من يحضره ليحدثه ويؤنسه، فبعث إليه، فحضر، فما كاد يراه حتى تهلل وصاح به؛ يا أبا أيوب: « كما رأيت طيب هذا الموضع ولذته، لم انتفع به حتى تكون معى فيه، فدعا له وأقام معه » فهذا هو أبو جعفر لم يطب له مجلس توافرت له فيه أسباب الراحة والمتعة والسرور حتى يحضر أبو أيوب ليحدثه ويؤنسه.

***

استقام الأمر لأبى أيوب، وتولى الوزارة والديوان، وقام على تدبير

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٦٦ .

الشئون ، وعلت منزلته فى نفس المنصور ، وعرف الناس ذلك له فأصبحوا يرجون رضاه ، ويخشون غضبه . وكان يهمهم ذلك أكثر مما يهمهم من المنصور نفسه ، لأنهم إذا غضب عليهم المنصور شفع لهم عنده أبو أيوب ، وأما إذا غضب عليهم أبو أيوب فمن ذا الذى يشفع لهم عنده ؟!!

ولقد عظم فى عين المنصور حتى إن الأمراء وبنى أعمام الخليفة وذوى قرابته الأدنين والأبعدين — كانوا إذا بدرت منهم بادرة يلتمسون من المنصور العفو على يد أبى أيوب ؛ ولقد حدث أن ابن المقفع حينما كتب العهد على المنصور لعبد الله بن على ، وكد ذلك العهد ، واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيه ، حتى لم يتهيأ لأبى جعفر إيقاع حيلته فيه ، لفرط احتياط ابن المقفع ؛ ولقد شق على أبى جعفر المنصور أن يشترط عليه ابن المقفع التوقيع على العهد بخطه وفى أسفله ، كما شق عليه التشديد فى المواثيق حتى إنه أخذ عليه أن يتعهد ألا ينال عبد الله أو واحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، وألا يوصل إلى أحد منهم ضررا ، سرا أو علانية على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحا أو كتابة أو بحيلة من الحيل ، وإنه إن فعل ذلك ، أو حاوله ، فهو نفى من أبيه ، وإن محاولة نقض ذلك الميثاق يجعل جميع أمة محمد فى حل من خلعه وحربه والبراءة منه ولا يجعل له بيعة ولا عهدا ولا ذمة فى رقاب المسلمين ، ويجب عليهم إذ ذاك أن يخرجوا من طاعته وأن يعينوا من ناوأه من جميع الخلق ولا تكون بينه وبين أحد المسلمين موالاة ، ويكون كافرا بجميع الأديان ويلقى ربه على غير دين ولا شريعة وأن يكون محرم المأكل والمشرب والمركب والزى والحلل والملبس على جميع الوجوه ومختلف الأسباب [1].

هذا الميثاق الموكد الذى احترس فيه ابن المقفع من كل تأويل يجوز أن

---

١ — ورد هذا العهد بنصه فى كتب التاريخ المطولة .

يقع فيه — جعل أبا جعفر يجد فى نفسه على ابن المقفع. وكان سفيان ابن معاوية يطعن على ابن المقفع أشياء منها أنه كان يسأله عن الشيء بعد الشيء فيجيب فيسخر منه ابن المقفع ويهزأ به، ويضحك ويتغامز به، ثم يصيح: أخطأت، فيغضب سفيان ويفترى عليه مايهيجه، وينطق لسانه بأقبح الشتائم وأشدها على الرجال، ومنها ما كان من معاونة ابن المقفع لعامل نيسابور ضد سفيان، وكان قد سفر بينهما وظل يطاول سفيان ويراوغه ويدافعه ويعلله حتى استظهر المسيح بن الحوارى عامل نيسابور، وقوى أمره، فامتنع على سفيان وصرفه عن نيسابور مرغما منهزما مكسور الترقوة.

فلما علم سفيان مانبت من الموجدة على ابن المقفع فى صدر المنصور، شجعه ذلك على الانتقام منه متى أمكنته الفرصة، وقد هيأت له الأيام ما أراد: فإن عيسى بن على أرسل ابن المقفع إلى سفيان ليسفر بينهما فى أمر من الأمور، وكان ابن المقفع كان يحس فى نفسه مايضمره له سفيان من موجدة وعداوة، فتأبى ولكن عيسى أمره أن ينطلق إليه؛ لأنه يعلم مكانه منه، فلا يتعرض له بسوء، وانتهى أمر هذه السفرة بقتل ابن المقفع على صورة من أشنع الصور وأبشعها وأقساها وأفظعها، فقد كان يقطع أعضاءه عضوا فعضوا، ثم يلقى كل عضو يقطع فى تنور مسجور، فيحترق وهو ينظر اليه.

علم عيسى بن على بمقتل كاتبه ابن المقفع، فحزن عليه، واستعظم أن يفعل سفيان ذلك، وأرسل اليه أن يخلى عنه إن لم يكن قتله، ويطالبه بدمه إن كان قتله، فأنكر سفيان أن يكون رآه، ثم استشار أحد خلصائه فقال له: «إن عيسى لا يقدر لك على مضرة ههنا لأنك الوالى، ولكنه سيكلم أمير المؤمنين بالكوفة، وليس أحد أخوف عليك من أبى أيوب سليمان بن أبى سليمان الكاتب. فإنه إن عاونه ضرك، وإن كف عنك رجوت ألا ينال منك عيسى مايريد».

فهذا سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، يشير عليه صفيه ونجيه وخليله عمر بن جميل أن يلوذ بأبي أيوب ، فإن أعانه ودفع عنه عند الخليفة نجا من يد عيسى بن على ، وإن لم يدفع عنه لم يفلت من يده .

خرج عيسى إلى المنصور يشكو إليه عسف سفيان وظلمه وقتله ابن المقفع ، فأرسل المنصور إلى سفيان من قيده وحمله إلى المنصور وكان معه رجال من أهل بيته وخاصته . فهذا هو المنصور أغضبه عيسى بن علىّ على سفيان فمن الذى ينقذه ؟ لا أمل له فى ذلك إلا عند أبى أيوب صاحب الحول والطول ، والقابض على الزمام ولكن من له بأبى أيوب وكيف يستميله إليه ، أرغبة أم رهبة ؟ إنه كتب إلى صديق له من قبل يبلغه أن عيسى بن على اتهمه فى أمر ابن المقفع ، ولكن هذا لا يكفى . أخذ يقلب الرأى على وجوهه المختلفة هو ومن معه من أهل بيته وخاصته : « فأشار عليهم رجل منهم أن يلقوا أبا أيوب فيكلموه كلاما خشنا ، يرهب معه منهم ، ويتخوف ناحيتهم ، وألا يسرفوا عليه فيحفظوه ، وألا يضعفوا فى مخاطبته فيطمعوه . ففعلوا ذلك . وقال له سفيان : أنا أعلم أنى إن سلمت فبك أسلم ، وإن عطبت فوالله إنى وأهل بيتى نعلم أنى بك عطبت ، وبرأيك أقتل ، فارتاع أبو أيوب ، وقال : « أنا ! — قال : نعم ؛ لأنك تقدر على أن تدفع عنى ، فقال لست أدع القيام بأمرك » .

وأيا كان السبب فى قتل ابن المقفع فإنه إذا صحت هذه الرواية ، فإنها تدل على أن سفيان بن معاوية وهو ذو مكان ورياسة وجلال وتقدم فى قومه وهو صاحب عمل وأمير إمارة ، وهو حسيب نسيب — قد استعان بأبى أيوب ليكون نصيره عند المنصور وكان يعتقد أن المستعان به معان ، وأن الملتجىء إليه ناج ، وأن اللائذ به معصوم . لذلك لم يتردد فى أن يمد يده إليه بطلب المعونة ويرجوه أن يقف بجانبه ضد عيسى بن على ، وإن قيل: إن الموجدة التى كان المنصور يجدها على ابن المقفع ساعدت أبا أيوب فى شفاعته ، وقوت مركزه

أمام المنصور ضد عيسى — رددنا ذلك بأن المنصور وإن كان يجد على نفسه من ابن المقفع ، إلا أنه ربما كان يحب أن يستبقيه ذخراً لينتفع به ؛ لأنه يعلم مكانته فى الكتابة ومنزلته من الكتاب ، حتى إن بعضهم روى أن أباأيوب كانت له يد فى قتل ابن المقفع ؛ لأن المنصور قال له يوما : — وقد أنكر عليه شيئا — كأنك تحسب أنى لا أعرف موضع أكتب الخلق وهو ابن المقفع مولاى ، فلم يزل أبو أيوب خائفا له يسعى ويدب فى أمره حتى قتله .

من هذا يتبين أن المنصور كان يجل ابن المقفع ، ويعرف له مكانه ، وكان يرجو أن ينتفع به يوما من الأيام ، فلما سمع مافعله سفيان لم يعجبه ذلك منه ، وأرسل اليه أبا الخصيب وكتب اليه : « قد وجهت اليك بأبى الخصيب ابن ورقاء ، فإن كان ابن المقفع حيا فادفعه اليه ، واثبت على عملك ، وإن لم تدفعه اليه ، فقد أمرته بعزلك وبحملك » .

***

إذن يشفع أبو أيوب فى سفيان ، ويدفع عنه ، وينكسر عن نصرة عيسى ابن على حتى يتأثر المنصور بدفاع أبى أيوب ويطلق سفيان ، ويعود إلى رأيه الأول فيه .

***

وهذا أبو جعفر يريد أن يقتل أبا مسلم ، فلم يجد من يستشيره ويستشير له سوى أبى أيوب ، فهو يدفعه ليشاور سلم بن قتيبة فى أمر أبى مسلم ، فيشير سلم بالتجاوز والصفح عن ذنبه ، ثم يدفعه المنصور إليه مرة أخرى ويعلمه أنه يشاوره بأمر أبى جعفر ، فيقول سلم : « لا يصلح سيفان فى غمد ، ثم يتلو : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، ولا يزيد . ثم يدخل أبو أيوب يوما على أبى جعفر وبين يديه كتاب من أبى مسلم ، فيدفعه إليه فيقرؤه ، ثم يستمع

إلى المنصور يقول : والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه ، فيوجس فى نفسه خيفة إن قتل أبو مسلم ، ولكن الخليفة مصمم على قتله ، فلا بد أن يحتال له أبو أيوب على ذلك حتى لا تكون فتنة ؛ لأنه يعلم منزلة أبى مسلم من نفوس الناس عامة، وأتباعه خاصة ، ويعلم أنه لو مثل على الوجه الذى يريده المنصور ، وقع بين الناس تخليط كثير لا يسلم منه هو ولا المنصور وجرى فى نفسه همهمة طويلة قال فيها : « والله ما أرانا نسلم ، وما أحسب أصحاب أبى مسلم ، يرضون إن قتل، أن يدعوا هذا على الأرض ولا أحدا من أسبابه » هنا ينصرف أبو أيوب من حضرة المنصور ، ويمتنع عليه النوم ليلته ، ويفكر طويلا فى كيفية استقدام أبى مسلم ، فيرى أن خير طريقة أن يقدم آمنا على نفسه ، فيكون ذلك أسهل لما يراد منه أو يراد به ، أما إذا استقدم نافراً مستوحشاً ،فقد يكون وراءه شر مستطير . ولأجل أن ينفذ أبو أيوب سياسته أرسل إلى أبى مسلم من يأتى به ، ويعلمه : «أن أمير المؤمنين قد عزم أن يوليه ما وراء بابه ، ويريح نفسه ويتودع» وكان أبو مسلم إذ ذاك حسن النية فصدق كلام الرسول ، وقصر فى التحرز والتأهب ، وجاء إلى المنصور منخدعا بما ألقى إليه ، ولقى حتفه ، ولم يحدث لقتله كثير مما كان يتوقعه أبو أيوب بحسن حيلته وجميل تصرفه ، حتى إن رجلا دخل على المنصور فرأى أبا مسلم مقتولا ، فتأوه واسترجع،وكان أبو أيوب حاضرا فجبهه بكلام أفحمه ، ورده إلى صوابه إذ قال له: أشرت بقتله حين خالف ،حتى إذا قتل تأوهت واسترجعت ، وذلك يغضب أمير المؤمنين ، فبهت الرجل بغلظته وقسوته ، فاضطر إلى أن يقول كلاما يصلح به ما أفسد ، ويرضى أمير المؤمنين وكذلك استطاع المنصور بحسن تدبير أبى ايوب أن يقتل أبا مسلم وكل ما حوله منه وله وإليه . وكان إذا رأى احداً ينكر عليه ما فعل أو يخطئه فى معالجته أبا مسلم تغيظ عليه ودعا به وأغلظ له وتهدده وتوعده، فيوجس

فى نفسه خيفة منه ، ويرتد على وجهه كاسفا لايستطيع أن يبوح بشىء مما فى نفسه .

ولقد أصبح أبو أيوب يحترمه الخاصة من أهل بيت الخلافة وغيرهم حتى من كان يخشاهم سيده الخليفة المنصور ، فذلك عبد الله ابن مروان بن محمد يذهب إلى ابى أيوب ، ليقضى حاجة له عنده ، ثم يقوم عبد الله لينصرف من حضرة ابى أيوب ، ويكون الشكر على قضاء حاجته أن يأخذ براس أبى أيوب ويقبلها .

أتدرى من هو عبد الله هذا ؟ هو عبد الله بن مروان ، كان أبوه مروان ابن محمد من خلفاء بنى أمية . ويسمع المنصور خبر تقبيله رأس أبى أيوب ، وكان متكئا فيستوى جالسا مما ناله من العجب ، ويسأل مندهشا : قبل عبدالله رأس سليمان ؟ فيجاب : نعم ، فيرفع يديه ، ويحمد الله ، ثم يخر ساجدا شكرا لله ، ويطيل السجود لأن الله مد فى عمره حتى يقبل عبد الله رأس كاتبه ووزيره .

وكان لذلك اثر عظيم فى نفس المنصور مع أن كثيرا يقبلون يد الوزير ورأسه وقدمه ، إذا قضى لهم حاجتهم ، إلا أن عبدالله هذا كان ابن أمير المؤمنين مروان ، وخرج يوما يركب ، وأمر الجند بالزينة ، فلما علم الناس أن ابن امير المؤمنين يركب ، انجفلوا للنظر ، وصارت لهم حركة ، فخرج المنصور فيمن خرج — وكان يومئذ بدمشق — ليمتع نظره برؤية ابن امير المؤمنين وهو يركب ، فازدحم الناس ازدحاما شديدا على رءوس الطرق ومنعرجاتها ، وكانت دابة المنصور صعبة ، فسقط عنها ، وانكسرت ساقه ، وغشيه الناس واقتحموه ، ولكن الله سلم . ومكث دهراً عليلا ، لاتبرأ علته ، وبقى أثر ذلك الكسر فى ساقه حتى شاء الله أن يتم نعمته عليه فيصير الملك إليه ، ويقبل ابن امير المؤمنين راس كاتبه بعد ان يسعى إليه فى قضاء حاجته .

إن الأمور تجرى على مايريده لها صاحبها ، فإن أحسن السيرة وأخلص فى عمله ، كان النجاح مكتوبا له ، وإن لم يخلص فى عمله ، ولم تجر الأمور على وجهها ، انعكست عليه الأمور ، وتحطمت الآمال ، وكل من يحاول أن يستر مايجنيه من سيئات ، ويخفى مايجترح من آثام ، فإن الدهر كفيل بأن يظهر كل شىء على حقيقته ، ولاسيما إذا كان من القوم الذين تتصل أعمالهم بمصالح الجمهور ، أو بالسياسة العامة للدولة ، فإنه إن ظلم أوسلب واغتصب ، اوحابى أو دلس ، او دس ، أونافق ، أو فعل أى شىء من الأشياء التى لاتجوز أن تكون من مثله — إنه إن فعل شيئا من ذلك ، فما أخطأه من شىء ، فلن يخطئه ابدا أن يقع فى شر ما فعل ، وأن ينكشف القناع عن كل ما حاول إخفاءه ، وإذا ظهرت زلة تتابعت الزلات . وأبو أيوب : هيأت له المقادير أن يكون وزيرا ، ولكنه كان وزيرا لأبى جعفر المنصور ، وهو الخليفة المحنك المجرب الذى حلب الدهر أشطره ، والخليفة الصالح التقى المجتهد فى دين الله ، والخليفة الحريص على مصالح المسلمين وأ.والحم ، والخليفة اليقظ الذى يطلع على كل صغيرة وكبيرة تجرى فى رعيته ، والخليفة الذى يحرص على مال المسلمين حرصا جعل بعض الناس يبخلونه ، والخليفة الذى قضى على أبى مسلم الخراسانى الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ، والخليفة الذى كان يعتقد « أن الخليفة لايصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا العدل » ، والخليفة الذى كان ينصح ابنه أن يستديم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والطاعة بالتألف ، والنصر بالتواضع .

هذا هو الخليفة الذى هيأت المقادير لأبى أيوب أن يكون كاتبه ووزيره ، وكان — كما قدمنا — ظريفا خفيفا على قلب المنصور ، حسن التأتى لما يريده ، فعظمت مكانته عنده ، وقدمه على غيره ، وحظى فى مجلسه ، وكانت له به ثقة لاتحد ، ولكن أبا أيوب كان سيىء الحظ ، سيىء التصرف ، شرها ، خائنا ،

صغير النفس ؛ واستطاع بدهائه أن يخفى على المنصور سيئاته مدة ، ولكنه لم يلبث أن افتضح أمره ، فساءت عاقبته ، ونكل المنصور به وبأسرته على ماسيأتي بعد .

وإذا أردنا أن نحصى على أبى أيوب ما اجترحه من الآثام خفية — طال بنا القول ، ولكن هذا لايمنعنا من أن نقول : إنه ما كاد يتولى الوزارة حتى جاء بأقاربه ، وولى كلا منهم أمراً من أمور الدولة ، وصرفهم فى الأعمال ، ونالوا من الدنيا ونعيمها حظا جسيما ، ولم يعترض عليه أبو جعفر ، حتى تعجب العامة ، وأشاعوا أن أبا أيوب ساحر ، وأن المنصور مسحور .

وأنه كان يسعى على غيره من وجوه الرجال حتى يقصيهم عن المنصور لكيلا ينافسوه فى الحظوة لديه ، وكان يختص به ، ويقلب عليه بعض من تسوء أعمالهم وأخلاقهم ، فيشرهون ويحرصون على أخذ الرشوة ممن يلونهم ، فهذا محمد بن الوليد يكتب على لسان أبى أيوب إلى طريف مولى أبى جعفر ، ومتولى بريد مصر والشام والجزيرة ، ويطلب إليه أن يرسل إليه مئة ألف دينار ، فيحملها هذا إليه ، وهو يعتقد أن أبا أيوب هو طالبها وأراد الله أن يكشف تلك الخيانة ، فوشى أبو أيوب بطريف عند المنصور ، وحمله على مكروهه ، فصرفه المنصور عن عمله ، وقلد غيره ، وأمر بمحاسبته ، فحاسبوه ، وضيقوا عليه ، حتى أحفظوه عليهم ، فصار إلى أبى جعفر ، وأطلعه على الكتاب الذى كتبه إليه محمد بن الوليد عن لسان أبى أيوب يطالب فيه مئة ألف دينار ، فلما وقف عليه المنصور دفعه إلى أبى أيوب ، فعرف فيه خط كاتبه وختمه ولكنه أنكر عليه بشىء مما فيه ، فغضب أبو جعفر ، وقال : هذا أشد الأمرين — مئة ألف دينار تؤخذ ، ولا يعلم علمها . ولما انصرف محمد بن الوليد من حضرة المنصور — أراد أن يعرف حقيقة هذا الخطاب ، فاستدعى محمد بن الوليد ، وسأله ، فقال : نعم هذا كتابى ، وأنت أمرتنى به ، وكابره وبهته ، فكره

أبو أيوب مراجعته ، لئلا يسعى به ، فوكل به ، وحبسه ، وحال بينه وبين الناس جميعا ، حتى لا ينقل عنه ، أو ينقل إليه فتمكنه الفرصة بالوشاية والسعاية .

وهذه غلطة أبي أيوب ، فلو أنه استكتب رجلا من الأطهار المخلصين لأحسن إلى نفسه وأحسن إلى أبي أيوب ، فما كان يغشه في عمل ، وما كان يصبر على إثم يقترفه ، وما كان يقصر في إسداء النصح إليه . وماذا يجدى أنه احتال لقتله ، وقد وقف المنصور على حقيقة الأمر ؟ وهو إن استطاع أن يصرفه عنه ، فإن الأثر يبقى في ذهنه ، حتى إذا تجمعت الأسباب كان هذا سببا فيضم إليها ويقويها ، ومع هذا فإن محمد بن الوليد لم يترك نفسه يقتل من غير أن يسود صحيفة أبي أيوب عند المنصور لو نجح في السعاية فإنه دفع إلى من وكل بقتله قرطاسا ، وطلب إليه أن يقدمه إلى أمير المؤمنين ؛ وأمير المؤمنين إذا قرأ الخطاب خلع أبا أيوب وولاه مكانه ، إلا أن الرجل كان مخلصا لأبي أيوب ، فإنه أخذ القرطاس منه وضرب عنقه ، ثم حمله إلى أبي أيوب فقرأه ، فرأى فيه كل عظيمة من أمره ، مما لو وقف عليه أبو جعفر لكان سببا في التعجيل به .

وكان يخلع على المختصين به والمقربين إليه ثوب النعيم ، ويوليهم الأعمال التي تدر عليهم رزقا واسعا رغيدا ، شأنه مع أهله وذوى قرابته ؛ فهذا صديق نصراني كان جاراً له رقيق الحال ، فيوليه بعض الأعمال التي يصيب منها مالا كثيراً ، يجعله يبتاع لنفسه سمكة واحدة بثلاثين درهما ، لتكون طعاما له ، وكان فردا ليس له أهل ولا عيال ، ويعلم بذلك المنصور ، فيأخذه ويعنفه ، ويسأله عن ماله وعن الطريق التي حصل عليه منها ، فيعرف أنه كان جارا لأبي أيوب وزيره ، وأنه كان رقيق الحال فولاه بعض الأعمال ، فأصاب منها عشرات الألوف من الدراهم ؛ فلم يرض المنصور أن يترك له ذلك المال ، ولكنه يرده إلى بيت المال لأنه اختانه من مال المسلمين ، ولعل شيئا وقر في

نفس أبي جعفر من أبي أيوب بسبب ذلك .

***

وكان أبو أيوب لا يكفيه ما يفعله هو وأقاربه وأصدقاؤه فى الإصابة من مال الدولة بحق وبغير حق ، فإنه تطاول على المنصور نفسه ، وكان يختانه ، ويكذب عليه ، ويأخذ منه ماله — فهذا هو المنصور له ابن رقيق الحال يحبه كما يحب إخوته ، ويتمنى له من الخير والسعادة ما يتمناه لهم ، ولكنه يقطع إخوته جميعا من دونه ، فيعز ذلك عليه ، ويفكر فى إقطاعه كما أقطع إخوته ؛ فيتقدم أبو أيوب إلى المنصور بدهائه ولباقته وظرفه وخفته ، ويخبره أنه أصاب لذلك الابن ضيعة خصبة ، يغذيها دجلة ولا عيب فيها إلا أنها دثرت رسومها ، وهجرت ربوعها ، وانطمست أنهارها ، فهى فى حاجة إلى الإصلاح يتكلف ثلثمائة ألف درهم ، فإذا شاء أمير المؤمنين أن يقطع ابنه المسكين هذه الضيعة ، وأن ينفق عليها تلك الدراهم التى تبلغ ثلثمائة ألف درهم — فعل ، ونحن له طائعون . فظن المنصور أنه مخلص فيما يقول ، فأقطع ابنه الضيعة ، وأمر بالمال لإصلاحها .

والذى حمل أبا أيوب على المغامرة فى ذلك ، أن الرخاء عم ، والأسعار رخصت ، فطمع هو فى أن يستغل هذه الحالة ، ليكسب من ورائها شيئا ، فسولت له نفسه أن يشترى طعام سواد الكوفة ، وسواد البصرة طمعا فى الربح ، فاشتراه ، وحرر المنصور عليه بذلك المواثيق ؛ إلا أن الأسعار ظلت ترخص ، والمنصور نشط فى مطالبته بالمال الذى تعهد به ، فكان يدفع من ماله الخاص حتى تحمل شيئا كثيرا من الخسارة ، فالرخص متتابع ، والإرهاق بالمطالبة متتابع . فلما أراد أن يعوض بعض ما خسره ، لجأ إلى تلك الحيلة الدنيئة التى يدلس بها على أمير المؤمنين ويغشه ، وما كان أغناه عن ذلك لو أنه أحسن التصرف فى الأمور ، وراقب الله والضمير والوطن والخليفة ، فيما يأتى وما يذر .

أخذ أبو أيوب المال ليصلح به الضيعة . ولكنه أخذه لنفسه ، وأدى منه صدرا من خسارته فى الطعام ؛ ولما حال الحول وطالبه المنصور بغلة الأرض — حمل إليه عشرين ألف درهم على أنها غلتها ، فسر المنصور بذلك ، إلا أن أمرا مثل هذا ما كان ليخفى عن المنصور مهما حاول أبو أيوب فى كتمانه ، لأن حوله من العيون والأرصاد ، من يكشفون المخبآت ، ويظهرون الدفائن، مهما طال بها الزمان ، ولذلك لم يعدم أن يجد من يسعون لأبى جعفر بأمر هذه الضيعة ، وأعلمه أن أبا أيوب أخذ المال لنفسه ، وأنه غره وخدعه من هذه الناحية ، فأراد أن يعرف الأمر بنفسه ، وأن يستوثق من حقيقة الأمر ، ولعله كان يستبعد أن رجلا مثل أبى أيوب يفعل مثل هذا الذى بلغه ، فتجهز للشخوص إلى تلك الضيعة ، فلما علم بذلك أبو أيوب كتب إلى وكلائه « أن يبنوا على دجلة فى طريق أبى جعفر قرى من اللبن والقصب ، وأن يغرسوا نخلا وسدرا ، وكل ما يتهيأ أن يحسن به ، ويرى ظاهره ، ليراها أبو جعفر عامرة الظاهر » ثم أمر أن يطلق الماء على الضيعة ، فأطلقوه ، فعمها وأغرقها ، وظهر فى وسط الماء آثار القرى ، والنخل والسدر ، وكان يريد بذلك آثار العمران بادية ، فيعود أدراجه ، ولكنه كان أشد حيطة من أبى أيوب ، فلم تجز عليه حيلته ، فأقام أربعين يوما حتى غاض الماء ، وجفت الأرض ، ثم ركب ووقف على الضيعة ، وتبين كذب أبى أيوب وانصرف ، ولم يقل شيئا إلى أن عاد إلى بغداد ، وأوقع به كما سيأتى .

***

كره كثير من الرؤساء والمتقدمين فى الدولة أبا أيوب ، ووقفوا على كثير مما كان يأتيه من الأعمال السيئة هو ومن حوله من أقاربه وخواصه ، فأتاح لهم فرصة السعاية عليه عند الربيع ، وحمله على مكروهه ، وأثبتوا له ما قدموا له من أخبار ، بأدلة لا تقبل شكا ولا تأويلا ؛ فذلك هو الربيع يشخصه

المنصور معه حينما خرج إلى الأهواز ، ليشاهد الضيعة التى استصلحها أبو أيوب لابنه ، والمنصور يشتهى هناك سمكاً شهياً ، فيعده له أبو أيوب عند عجائز الأهواز اللائى يحسن صنعة السمك وتهيئته ، فيتقبل المنصور ذلك ، ويأذن له فى صنعه ، ولكنه لايلبث أن ينهض من المجلس ، ويدعو الربيع ليصب عليه الماء حتى يغسل وجهه ، فتحضر إذ ذاك سلال مليئة بألوان من الخبز ، وضروب من الرقاق ، وصنوف من السمك ، ولكن الربيع صديق أبى أيوب ، يجد الفرصة سانحة للتكلم مع المنصور فى شأن أبى أيوب بكلام فيه حيطة له ، وسعى على أبى أيوب ، فيقول « ياأمير المؤمنين : تعلم أنى غير مستبطىء لسليمان ، وإنه منى لعلى صداقة ومودة ، ولكن امير المؤمنين آثر عندى من نفسى ، وقد علم سليمان مايريده أمير المؤمنين به ، فهل يأمن امير المؤمنين أن يكون قد دس له فى هذا الطعام شيئاً ؟ » وجد هذا الكلام موضعاً فى نفس المنصور ، فوقر فيها وتمكن . ولقى صدرا رحبا يهش له ويقبله ، وانطلق لسان الخليفة يشكره وإطلاعه على أمر فى نفسه ما كان يعلمه أحد من قبل ، فقال : « بارك الله عليك ياربيع ، وأحسن جزاءك ، إنه مادخل رأسي مما يأتى من عند سليمان من الألطاف شىء منذ كذا وكذا من الدهر ، فلا يسمعن منك هذا بعد » . فالخليفة يقبل نصيحة الربيع يشكره ، ويطلعه على ما فى نفسه من ناحية أبى أيوب ، ثم يدعو بطعام آخر غير الطعام الذى أعده أبو أيوب .

***

وما كان ذلك فقط من الربيع فإنه كان لايفتر عن حمل كل مايصل إليه من الأخبار عن أبى أيوب ليوغر صدر المنصور — فهو الذى كان يحمل كلام أبان ابن صدقة كاتب أبى أيوب ، فإن كان يأتى الربيع ، وينقل إليه أخبار أبى أيوب الذي كان يقضي معه نهاره كله ، ولم يفد أبا أيوب حرصه الشديد ، إذ كان يترك

غلمانه يصحبون أبان عند انصرافه حتى يصل إلى داره ، ولكن أبان كان يخرج إلى الربيع بعد أن يعود الغلمان إلى سيدهم ، ويبلغه مايريد — أما الربيع فإنه كان يوصل هذه الأخبار إلى المنصور ، فيعجب المنصور ، ويقول : من أين هذا ؟ فيقول : من أبان بن صدقة . فلما علم أبو أيوب بذلك ، عاتب أبان ، فجرؤ هذا عليه ، وأعلمه أنه فعل ماوصل إليه ، فندم أبو أيوب ، وعض على بنانه ، وقال : فعلتها!!! ، اخرج فلا تقربني، فخرج ولكن بعد أن آذاه وأذاع سره .

***

وكان أبو أيوب لايتورع أن يشى عند الخليفة بكل من يتصل به . ومن هؤلاء أبو دلامة الشاعر المشهور ، وشاعر المنصور المختص به والذى كان يصله ، ويستطيب مجالسته ، ومنادمته ، ونوادره . حتى كان لايبخل عليه كما يبخل على غيره من الشعراء ، وكان يتجاوز عن هفواته للطف محله عنده .

وكان أبو أيوب يشنؤه ، فأراد أن يفسد مابينه وبين المنصور ، فأتاه من ناحية الدين ، لأن أبا دلامة كان « فاسد الدين ردىء المذهب ، مرتكبا للمحارم ، مضيعا للفروض ، مجاهرا بذلك » لذلك لم يتعفف أبو أيوب عن الوشاية به ، فهو يدخل على أبى جعفر ، ويقول له : أن أبادلامة منعكف على الخمر ، فما يحضر صلاة ولا مسجدا ، وقد أفسد فتيان العسكر ، فلو أمرته بالصلاة معك ، لأجرت فيه وفى غيره من فتيان عسكرك بقطعه عنهم ، يسمع ذلك المنصور ، فيغضب من شاعره المختص به ، والمختص بعطاياه وجوائزه ، فلا يكاد يراه حتى ينهره على مجونه ، ولا يجدى عنده استكانته وتضرعه وتنصله مما نسب إليه ، لأنه شارف باب قبره ، فيحذره أن تفوته صلاة الظهر والعصر فى مسجده ، وإلا فإنه يحسن أدبه ، ويطيل حبسه ، فلم يجد أبو دلامة مناصا من لزوم المسجد ، فثقل ذلك عليه فكتب هذا شعرا ودفعه إلى المهدى ، فأوصل هذا إلى أبيه ، فلما قرأه أعجبته فكاهته ومرحه ، فأعفاه من الصلاة معه

وأحلفه أن يصلى الأوقات كلها فى مسجد قبيلته ، ومما قاله فى القصيدة التى رفعها إليه :

ألم تعلمـا أن الخليفـة لزنى بمسجده والقصر ، مالى وللقصر ا
أصلى به الأولى جميعـا وعصرها فويلى من الأولى وويلى من العصر
أصليهما بالكره فى غير مسجدى فمالى فى الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان فى قومى مسـاجد جمة ولم ينشرح يوما لغشيانها صدرى
يكلفنى من بعـد ماشبت خطـة يحط بها عنى الثقيـل من الوزر
وما ضره والله يغفر ذنبه لو ان ذنوب العالمين على ظهرى

مهذب الأغانى ح ٩ ص ٢٤ .

فهذا أبو أيوب غلب عليه طبعه ، فوشى بأبى دلامة ، وهو يعلم أن له عند المنصور منزلة خاصة ، لايتمتع بها شاعر غيره ، ولكنه يخرج من ذلك بالخسران المبين ، فإنه ان افلح فى إغضاب المنصور على أبى دلامه أياماً ، فإن أبادلامة لم يلبث أن عاد إلى منزلته عند المنصور ، وساء رأيه فى أبى أيوب ، حتى كان من الساعين عليه .

***

وذلك عمرو بن عبيد ، العالم الواعظ ، شيخ المعتزلة ومفتيها ، يعظ المنصور والمنصور يجله ويحترمه ويقدمه ، فبينما هو خارج من حضرته مرة ، قابله أبو أيوب فقال له : ياأبا عثمان — أظنك قد ردعت هذا الرجل ، فقال : نعم ، وقد حضضته على اهل الكوفة واهل البصرة ، فإن استطعت أن تعينه بخير فافعل ، وكفى بأمة شراً أن تكون أنت المدبر لأمورها .

فذلك عمرو بن عبيد ، ومقامه من المنصور مقامه ، ومنزلته من العامة والخاصة منزلته ، يرى أن الامة يكفيها شراً أن يكون أبو أيوب المورياني هو الذى يتولى أمورها

وكانت زلات أبى أيوب لا تقف عند حد . وقد يكون من أبشعها وأفظعها أنه كان للمنصور فتى من زوجة أهوازية، تزوجها حين كان مختفيا فى الأهواز، وكان قد تركه مع أمه، ثم عاد إليه، وتعرف عليه بعد أن ولى الخلافة، وأسلمه إلى أبى أيوب، وأمره أن يقوم على تربيته وخدمته، كما لو قام بخدمة ولده وتربيته، ثم أمر الربيع أن يدخله عليه من غير إذن، وأمر الولد أن يبكر إليه كل يوم فضمه المورياني إليه. وخصص له دارا، وأوسع له من كل شىء، فعاش فى نعيم مقيم وصار يغدو كل يوم إلى الخليفة ويروح عنه مسرورا مغتبطا حتى خص به جدا؛ وكان الولد عاقلا ذكيا لبيبا كاملا، عرف ذلك منه أبوه، فكان يخلو معه، ويقف على شىء أو أشياء مما عنده؛ وكان المورياني يحاول أن يقف على شىء مما يدور بين الفتى وبين أبيه، فكان الفتى يضن عليه بذلك، ولا يظهره على شىء أبدا، فيقول له: إن أمير المؤمنين لا يكتمنى شيئا، فيقول الفتى: «فما حاجتك إلى هذا عندى إذن ؟».

أصر الفتى على ألا يبوح بشىء، وألح المورياني فى أن يعرف شيئا، فلم يظفر، فاستوحش منه، وثقل عليه مكانه، وأبغضه فدس له سما فى طعام أكله فمات!!، وأخبر المنصور أن ابنه مات فجأة، فلما انصرف قال المنصور: قتلنى الله إن لم أقتلك به.

***

أحس أبو أيوب أن زلاته كثرت، وأن مركزه عند الخليفة أصبح مزعزعا، وأنه قد لا يفلت منه، فامتلأ قلبه رعبا منه، وأصبح يذعر لكل شىء، فلا يتهنأ براحة، ولا يتلذذ بطعام ولا شراب، ولا يطمئن فى نوم، ولا يطيب له مجلس أنس، ولا يعتز بسلطان ولا يستقر على حال — فذلك الذى طار فى الآفاق ذكره، حتى أصبح الناس يتجرون فى إسمه، ويتيمنون به، فيزرعون باسمه مزارعهم، ليرهبهم الناس، فلا يعتدون عليهم، ثم يقسمون الغلات بينهم

وبينه — ذلك الذى بلغ شأنه مابلغ ، يأتيه يوما رسول أبى جعفر وهو فى مجلسه ، فامتقع لونه ، وتغير ومضى إليه ، فعجب أصحابه ، وعجبوا من ذلك فلما عاد إليهم سالما عرف أنهم حسوا بما لحقه من اضطراب وتغير حينما أتاه رسول الخليفة ، فحدثهم فى ذلك ، وضرب لهم مثلا يجرى على ألسنة العامة وهو «أن البازى قال للديك يوما : ماشىء أقل وفاء منك ، لأن أهلك أخذوك فى بيضة ، فحضنوك وخرجت على أيديهم ، وأطعموك فى أكفهم ، ونشأت بينهم حتى إذا كبرت ، جعلت لايدنو واحد منهم إلا طرت يمنة ويسرة ، وصحت وصوت ؛ وأنا أخذت من الجبال كبيرا ، فعلموني وألفوني ، ثم يخلون عنى ، فآخذ صيدى وأجىء إلى صاحبي . فقال له الديك : لو رأيت فى سفافيدهم من البزاة مثل الذى رأيت فيها من الديكة ، كنت شرا منى » .

وبعد أن ضرب هذا المثل قال لجلسائه . ولكنكم لو كنتم تعلمون ماأعلمه، لم تتعجبوا من خوفى مع ماترون من تمكنى .

ولو سألت نفسك ماالذى كان يعلمه أبو أيوب من شأنه عند المنصور ؟ . إن أخطأنى الظن ، فلن يخطئنى أن من هذا الذى يعلمه : تلك الأخبار التى توالت إلى المنصور من الربيع وغير الربيع ، فوقر فى نفسه منها أشياء وأشياء لا يمكن أن يغفرها له ، فهو يتوقع الشر فى كل وقت ، وجعل المنصور يتحرج منه ، ويحتاط فى معاملته — فلا يطعم طعامه ، ولا يأتنس به فى مجلسه، ولا يدعوه لحضور سمره، ولا يطلعه على المهم من أمور دولته — فإنه خرج إلى قنسرين ليقيم فيها، ويرسل الأمداد منها إلى أفريقية حينما خرج عليه أهلها ولكنه كتم تدبيره، وأظهر أنه مسافر إلى ناحية لم يظهرها ولم يبينها ، وأمر بالاستعداد، ولم يعرف أحد القصد، فلما تذاكر ذلك أبو أيوب وبعض رفاقه ، رجموا بالظنون ، فلم يصيبوا شيئا ، ومع ذلك لم يقدم على مسألته أبو أيوب ، ولم يجرؤ على تعرف ذلك منه .

اجتمعت الأسباب لدى المنصور على ضرورة نكبة أبي أيوب — فقد علم عنه علم اليقين أنه يرتشي، وأنه شره في جمع المال، وأنه ولى أهله وخاصته الأعمال، وأنه دلس عليه في ضيعة الأهواز، وأنه وشى عنده بأبي دلامة شاعره المختص به، وأنه ساءت فيه شهادة عمرو بن عبيد، وأنه قتل ابنه الأهوازي — كل هذه الأسباب مجتمعة حطت منزلته عند المنصور، ولم يشفع فيه ما كان متصفا به من ظرف ولباقة وكياسة وحسن تأت للأمور. فصمم على أن ينكبه وينكب أهله.

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا

ومن أكثر شهامة من المنصور، وأحزم منه، وأكثر تحينا للفرص، ولاسيما في المهم من الأمور؟ فإنه حينما أراد قتله، قال له: «ياخوزي أكنت آمنا من أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك. فيكون جزاؤك في العاجل إراقة دمك، واستباحة نقمتك، وفي الآجل حلول دار الفاسقين، ومأوى الظالمين الناكثين؟!!»، فقال: «إن للتهم فلتات ترجع بالندم، ولك من رسول الله ﷺ عدل السياسة، وشرف القرابة، فأقلني». قال المنصور: «لا يسعني مع عظيم جرمك، وجليل ذنبك، إقالتك ولا العفو عنك؛ لأنك اقترفت الموبق، ومالا يسع معه عفو».

وصمم المنصور على قتله وقتل جميع من يتصلون به من إخوة وبني إخوة وحدث في أثناء الكلام عنه أن ملكا من الملوك كان يساير وزيرا له، فضربت دابة الوزير رجل الملك، فغضب وأمر بقطع رجل الوزير، فقطعت ثم ندم فأمر بمعالجته حتى برىء، ثم قال الملك في نفسه: هذا لا يحبني أبدا وقد قطعت رجله، والأجمل به أن يتخلص منه بقتله، وبعد أن ضرب هذا المثل قال: وأهل هذا الوزير لا يحبونني أبدا ولا بد من قتلهم جميعا.

ولما هم بنكبته حبسه وحبس أخاه وبني أخيه، ووقع به ما كان ينتظره

بعد أن علا حتى استوى على الذروة ، فكان لابد أن يهوى هويا سريعا يعفى عليه .

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

وتلك سنة الله فى خلقه — هذا صاعد ، وذلك هابط ، وهذا يبنى ، وغيره يهدم . فإذا انتهى الصاعد إلى الغاية ، أو أشرف عليها كان لابد أن يهبط من حيث صعد ، وإذا بنى البانى حتى انتهى من بنيته أو كاد أن ينتهى منها — كان مصيرها الهدم حتما .

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم

وهذا أبو أيوب ، بلغ ما بلغ فى دولة المنصور حتى كان هو المقرب ، والمقدم ، والرئيس ، والوزير ، والآمر ، والناهى ، والمستشار ، والمشير ، وصاحب الأمر النافذ والكلمة المسموعة ، وذا المهابة والجلال ، وأحس هو أن نعمته قد تمت وأنها على وشك أن تزول ، فإن رجلا ممن كانوا يتجرون باسمه ، حضر يوما ودخل عليه وهو لا يعرفه ، فجلس إلى أن خف الناس ، ثم دنا منه وأخبره أنه الأهوازى الذى زاره منذ عام ، واستأذنه فى أن يعيره اسمه ليجعله على ضيعته ، لأن العمال يحملون عليه فيها ، ويتناهبون غلتها ولا يتركون له شيئا ، وإن هو أعاره اسمه — تهيبوه ولم يدنوا من المزرعة ، وقبل أن يحمل إليه فى كل سنة مئة ألف درهم فى مقابل ذلك ، فوهب له اسمه يفعل به ما بدا له ، فلما حال الحول ، وأغلت الضيعة ، حمل إليه المال مقابل انتفاعه باسمه .

فلما سمع أبو أيوب القصة أخذ المال ووضعه بين يديه ، وانصرف الرجل شاكرا داعيا ، أما أبو أيوب فانه استعبر ، واندفع يبكى ويجهش بالبكاء ، وينتفض انتفاض العصفور بلله القطر ، فتعجب الحاضرون من أهله ، وقالوا له : « ما رأينا موضع سرور وفرح عقبه بكاء وحزن غير هذا » فقال لهم : « ويحكم ، إن شيئا بلغ هذا من إقباله كيف يكون إدباره ؟ »

فهو فى هذا يحس بسوء العاقبة . ونحن وإن كنا نعتقد أنه لو أحسن القيام على ماوليه من الأمور ، لطال نعيمه ، وبقيت معه سعادته ، ولكنه أحس أنه اوتكب أمورا ماكان يجدر بمثله أن يرتكبها وأن من يفعل ذلك لابد أن يفتضح أمره ، فكان النتيجة الطبيعية لمثل هذا أن يعجل الله به ولولا أن الله عجل به لعجل هو بدولة ناشئة كانت فى مهدها ، وقضى عليها ، ومن العدل أن الغادر يغدر به ، وأن الخائن يؤخذ بخيانته ، ولو ترك مثل هذا على وجه الأرض ، يعيش كما يعيش الناس ، وينعم بما ينعمون — لكان حربا على سيده يتآمر عليه ويسىء إليه ، ويكون مصدر فتن وقلاقل وثورات ويجد عقولا كثيرة مهيأة لمعونته والأخذ بيده ويدفع أصحابها ويقف من ورائهم يحركهم ويدبر لهم ، ويجد ذلك فى الطالبيين أو الأمويين ، أو بعض العباسيين ، أو فيهم جميعا ، فكان من الخير لسلامة الدولة وسلامة صاحبها ، أن يحول بينه وبين الناس ، فلا يقول لهم ، ولا يقال له ، ولا يسعى عليه وإن لم يتمكن صاحب السلطان من تلك الحيلولة كان عليه أن يحرمه الحياة محافظة على سلطانه وإبقاء على دولته . والأخذ بالحزم فى مثل تلك الأمور أجدى على الناس جميعا ، لا فرق فى ذلك بين الراعى ورعيته ، وإن تحرك له أحد من قومه ، أو حاول أن يشغب ، ضرب على يده ضربة لا يقوم منها . وليس فى ذلك قسوة يتهم بها صاحب السلطان لأن الأمور لا تستقيم إذا ترك مثل هؤلاء يعبثون . وعامة الناس لا يعرفون مواطن الخير ، ولا يميزونها من مواطن الشر ، فليتركوا الأمور تجرى بيد صاحبها ، والله يجرى على يديه الخير ما دام ذلك رائده .

وإن على الملك ألا يجاوز بأدل الجرائم عقوبة جرائمهم فإن لكل ذنب عقوبة — إما فى الشريعة والنواميس ، وإما فى الاجماع والإصطلاح ، فمن ترك العقوبة فى موضعها ، فبالحرى إن يعاقب من لا ذنب له ، وليس بين ترك العقوبة (إذا وجبت) وعقوبة من لا ذنب له = فرق . وإنما وضع الله

الملوك بهذه المواضع الرفيعة، ليقوموا كل ميل، ويدعموا كل إقامة [١] وقد يختلف فى تقدير العقوبة، وفى تقدير جزائها. أما ومرتكب الجريمة رأس كبير يخشى منه إذا ترك، ويخشى منه إذا كان حيا، فلتكن سلامة الدولة فى التخلص منه لأنه أحسن إليه فكفر بالإحسان وأنعم عليه فلم يراع حرمة الإنعام والمنصور كان لا يمن على أحد أحسن إليه مادامت له طاعة، وبقيت فيه ولاية فإذا خرج من الطاعة إلى المعصية وعدل عن النصيحة إلى المكارهة وأظهر الولاء وأبطن غيره ذكره «بلاءه عنده وقلة شكره ووفائه»، ثم يوقع به، ولو أن أحداً غير أبى أيوب فعل مافعل، لجاز أن يشفع فيه شىء من عمله، أو حسن تأتيه للأمور، أو أن يقيض الله له من يرحمه، ويذوب له قلبه حسرة عليه وشفقة به.

وقد يرتكب الذنب الواحد أكثر من شخص واحد. وعندمؤاخذتهم بما ارتكبوا من ذنب تجد كلا منهم توقع عليه عقوبة تختلف عن التى توقع على غيره، وذلك يكون تبعا لاختلاف أقدار الناس وأنواع أعمالهم. وإن خليفة مثل المنصور، كان «أكثر الأمور عنده معرفة أحوال الناس، حتى عرف الولى من العدو، والمداجى من المسالم، فساس الرعية ولبسها وهو من معرفتها على مثل وضح النهار» — لحرى أن يأخذ المذنب بما يستحق، وقد استحق أبو أيوب عنده القتل، وهو لم يقدم على ذلك إلا بعد أن فحص عن أسراره ودقيق أخباره، حتى لكان يتعرف مبيته ومقيله وحديثه مع خاصته، وما كان المنصور ليغفر لأبى أيوب، وهو الذى يرى أن «من حق الملك أن يكتم أسراره عن الأب والأم والأخ والزوجة والصديق، فان الملك يحتمل كل منقوص ومأنوف ولا يحتمل ثلاثة: صفة أحدهم أن يطعن فى ملكه، وصفة الآخر أن يذيع أسراره، وصفة الآخر أن يخونه فى حرمه» [٢].

(١) التاج ص ١٦
(٢) التاج ص ٩٤

فإذا كان عبد الله بن رفاعة يقول : إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق . وإذا كان عبد الله بن مروان يصرف كاتبه عن عمله ، لأنه قبل الهدية ، ويقول له : « إن كنت قبلت هدية لاتنوى مكافأة المهدى لها — إنك لئيم دنىء ، وإن كنت قبلتها تستكفى رجلا لم تكن تستكفيه لولاها — إنك لخائن ، وإن كنت نويت تعويض المهدى لها — إنك لئيم دنىء ، وإن كنت قبلتها تستكفيه لولاها — إنك لخائن ، وإن كنت نويت تعويض المهدى عن هديته ، وألا تخون أمانته ، ولا تثلم له دينا — فلقد قبلت مابسط عليك لسان معامليك ، وأطمع فيك سائر مجاوريك ، وسلبك هيبة سلطانك ، وليس منى من أتى أمرا لم يخل فيه من لوم أودناءة أو خيانة أو جهل مصطنع . ولم يشفع عنده مااعتذر به الكاتب من أن الأمور مستقيمة ، والأموال دارة ، والعمال محمودون ، والخراج موفر ، وذلك مايهم الحاكم من كاتبه .

إذا كان ذلك كذلك ، فما ظنك بالمنصور ، وقد تيقن أن أبا أيوب اختانه ، واعتدى على الأمانة التى حملها ، ولم يراع حرمة الخلافة ، ولا حرمة الولاء ، وحلب الدر حتى انقطع على يديه أو كاد ؟ ؟

***

حبس المنصور أبا أيوب وأهله جميعا ، وطالبهم بالأموال ، وأثقل عليهم وعذبهم حتى نال منهم . ومات أبو أيوب سنة ١٥٤ هـ ، وقتل بنو أخيه جميعا . وفيه يقول الشاعر :

فاتق الله وارض بالقصد حظا وتباعد عن موبقات الذنوب
قد رأيت الذى أدالت ونالت وقعة الدهر من أبى أيوب

محمد أحمد برانق

فهرست

العدد الأول من السنة الثامنة

صفحة

٣	مقـــدمة	التحرير
٥	مسلم بن الوليد «حياته وشعره»	للاستاذ محمد هاشم عطية المدرس بدار العلوم
٣٠	على هامش النقد «بعض سمات الشعر الحديث»	« سيد قطب بمراقبة الثقافة العامة
٦٠	تيسير القراءة والكتابة	« الشيخ عبد الفتاح خليفة المفتش بوزارة المعارف
٦٦	من الوزراء الإسلاميين أبو أيوب الموزيانى	« محمد أحمد برانق المدرس بالأبراهيمية الثانوية